المامة تاريخية ساذجة

بعصر ابي بكر الصديق

للدكتور احمد فريد رفاعي

— ٢ —

الردة بوتقة الاسلام

لعلك تطالبني الآن بالتحدث اليك في الردة من حيث كونها بوتقة صهر بها الاسلام وخرج منها قويًّا متماسكاً ، ونال من بعدها نجاحاً مؤزراً . وانت تعلم ان الردة في جملتها امتناع فريق من العرب كبير عن اداء فريضة الزكاة باعتبارها نوعاً من الاتاوة وفاتهم انها نوع من المعونة والرحمة والعطف من غنيهم لفقيرهم ومن قويهم لضعيفهم. وتعلم ان تيار الردة كان قويًّا وجباراً في قوته حتى كاد يكتسح الاسلام اكتساحاً لولا انه دين الله ولولا ان نهد للمرتدين مثل ابي بكر فرماهم بشجعان العرب وفرسان الهزاهز وابطال المواقع امثال خالد بن الوليد ووجهه قتال طليحة بن خويلد الأسدي ومالك بن نويرة وعكرمة بن ابي جهل وقد وجه به الى مسيلمة الكذاب باليمامة ، وشرحبيل بن حسنة ووجهته مسيلمة وقضاعة ، والمهاجر بن أبي أمية لمعاونة الابناء على قتال الأسود العنسي بصنعاء ، وحذيفة بن محصن وقد بعث به الى عمان ، وعرفجة بن هرثمة الى أهل مهرة ، وسويد بن مقرن ووجهته الى تهامة ، والعلاء بن الحضرمي وبعثه الى البحرين ، وطريفة أبن حاجز ومهمته بني سليم ، وعمرو بن العاص لقيادة الجند الى قضاعة ، وخالد بن سعيد وقد وجهه الى الشام

تعلم هذا وتعلم من الطبري وغير الطبري النصوص التي كتبها ابو بكر لامير كل بعث ولجماعة المرتدين في كل قطر وقد هالك طبعاً ان يران الفتنة قد التهبت في كل صقع من بلاد العرب ، وهالك طبعاً انه الى جانب هذا الارتداد الجزئي ارتداد اوسع نطاقاً وابلغ خطراً ... هو ادعاء النبوة عند الكثيرين ممن يصح ان اتحدث في أمرهم ممتع تفكهة ودعابة بيد اني الآن اود ان اتحدث اليك في شيء جزئي هو الآخر ولكن له مضاء وله فلسفته وله درسه وله تهذيبه . . . . . ذلك الشيء هو انفاذ ابي بكر الصديق لجيش

اسامة بن زيد ، واعتقد انك ستوافقني بعد وقوفنا على ذلك الشيء الجزئي معاً وسنؤمن معاً بضرورة نجاح اصحاب هذه الدعوة الاسلامية لما لهم من مميزات خلقية من عزمة حذاء ، وهمة شماء ، وارادة وعضاء

ابو بكر واسامة بعد سبر

اجل سأحدثك عن اسامة وبطولة اسامة وهو لم يزل بعد في طراوة اهابه وعنفوان شبابه ، وهو جدير باعجابك وتقديرك لانك معجب بنابليون وبطولة نابليون وهو لم يزل بعد كاسامة في طراوة اهابه وعنفوان شبابه . . . ولكنني اعنم جبك للنصوص التاريخية لأن رسميات ذلك العصر وما هو شبيه بالرسميات في ذلك العصر مما يقع من قلبك الكبير موقع التقدير والاجلال . . . . . ولست في حاجة الى ان اذكرك أن نية رسول الله نفسه كانت منصرفة الى ان يبعث باسامة وجيش اسامة لتأديب بعض الغساة والخارجين . ولست في حاجة لان اقول لك ان المنية قد عاجلت الرسول دون انفاذ هذه البعثة وان ارتداد المسلمين والذهول الذي استولى على المؤمنين بوفاة نبي المسلمين لم يحولا بعد عما ستحدثك به النصوص والرسميات ، والمصادر الشبيهة بالرسميات . . . .

يحدثنا الطبري عن مشيخته عن عاصم بن عدي انهُ قد نادى منادي أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتم بعث اسامة ألاَّ يبقين بالمدينة احد من جند اسامة الا خرج . . . ويحدثنا بان ابا بكر قد خطب هذا الجند بما ستجده في اخبار السنة الحادية عشرة . . . . . ثم يحدثنا الطبري بان الحسن بن ابي الحسن البصري قد قال ما نصهُ : « ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب وأمر عليهم أسامة بن زيد ، فلم يجاوز بهم آخر الخندق حتى قبض رسول الله صلعم ، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر : ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنهُ يأذن لي ان ارجع بالناس ، فان معي وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله ، وثقل رسول الله ، واثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون . . . . ! وقالت الانصار فإن ابى إلاَّ ان يمضي فابلغهُ عنا واطلب اليه إن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة . . . . ! فخرج عمر بأمر اسامة ، وأتى ابا بكر فأخبره بما قال أسامة . فقال ابو بكر : لو خطفتني الكلاب والذئاب لم ارد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فان الانصار أمروني أن ابلغك انهم يطلبون اليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر فقال له ثكلتك

امك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلعم وتأمرني أن انزعه . . . . . ! فخرج عمر الى الناس فقال : امضوا ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله . . ! ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وشخصهم وشيعهم وهو ماش ، وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له اسامة يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال والله لا تنزل ووالله لا أركب ، وما عليّ أن أغبر قدميّ في سبيل الله ساعة . . . . . ! إنّ للغازي في كل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة . . . . . حتى اذا انتهى قال ان رأيت ان تعينني بعمر فافعل ، فأذن له ثم قال : يأيها الناس قفوا اوصيكم بعشر فاحفظوها عني ، لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكلة ، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا اكلتم شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا : اندفعوا باسم الله . . . . . اه »

***

وإنك بلا ريب ستوجّه نظري ياصاح الى قوة ارادة ابي بكر المثلة في قوله « لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أردّ قضاء قضى به رسول الله » ، وستشير اليّ بما في تصميم ابي بكر على إمرة أسامة من احترام ارادة الرسول ، وستذكرني بأدبه في مشيته ، وايمانه في خطوته ، وأدبه مع قادته . . . . . ستوجه نظري الى ذلك كله مما يجب عليّ ان اذكره واتدبره واما انا فاري في عنقي بعد ان فهمت ما ترمي اليه من تبيان رسوخ ابي بكر واستصغاره للخطب وتقديره للكفايات واحترامه لحقوق الامير وهو الخليفة دونه في استئذانه في النزول له عن احد جنوده ورجاله كعمر بن الخطاب — أمّا انا فاري من قبلي ان أوجّه نظرك — سيما في ايامنا هذه وجيلنا الراهن وحروبنا الحاضرة الى ما تضمنته وصيته لجنده من ضروب الانسانية وآداب المقاتلة . . . . . اليس كذلك ؟

ولكنك تريد ان تحدثني عن الردة وما فيها من حروب ووقائع انتهت بتوطيد الاسلام ، وتطهير الاسلام ، في تلك البوتقة الحامية الضرام . . . . واما انا فأريد من ناحيتي ان احدثك عن الوجه الثاني من الردة . . . وجه البطولة الكاذب في النبي الكاذب

الانبياء الكذبة

افهم جيداً ان المجال لا يسمح بالتحدث عنهم جميعاً من مسيلمة بن حبيب رعبلة بن كعب المعروف بالاسود العنسي وطليحة بن خويلد الاسدي وسجاح بنت الحارث بن سويد التميمية وغير هؤلاء من مرتزقة الرسالة وصناع النبوة . . . . افهم هذا ولكني افهم ان وجه ثبات الايمان ، ووجه اعجاز القرآن ، ووجه نجاح رسالة نبي عدنان ، انما كان في ظهور هؤلاء وانما كان في تزييف هؤلاء وفشل هؤلاء . . . .

ولعلك تذكر خلاصة ما قرأته في شبابك في المظان التاريخية العربية عن رغوة هؤلاء وزبد هؤلاء . . وانها كانت الى زوال وعفاء ، وانها ذهبت جفاء وكتب لها الفناء . . .

ولعلك تذكر من قرآن سجاح قولها: «أعدوا الركاب ، واستعدوا للهاب ، ثم اغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب »

ثم لعلك تذكر من قرآن مسيلمة : « والمبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، اهالة وسمنا . . . لقد فضلتم على اهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، رمحكم فأمنعوه والمعز فآووه ، والباغي فناوئوه . . . . ثم قوله : الفيل ما الفيل وما الفيل ، وما ادراك ما الفيل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل . . . ثم لعلك قرأت في حيوان الجاحظ عند كلامه في الضفدع قوله : ولا أدري ما هيج مسيلمة على ذكرها ومَ ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . . . .»

ثم لعلك الى جانب هذا كله تذكر قول مسيلمة لسجاح . «وهل أكل قومي وقومك العرب؟ قالت نعم . . . فتزوجها واقامت معهُ ايماً ثلاثة ثم أفلت راجعة الى قومها . . . لا من رسالتها ولا من جهادها ولا من بلائها بل من زواجها ان كان الزواج جهاداً ومن بنائها إن كان البناء بلاءاً . . . . فسأل قومها نبيّهم ذات المعجزات والآيات عن وحيها الجديد ، وأمرها الجديد ، فقالت : إني وجدته على الحق فاتبعته وتزوجني . . . . ! فما ثارت لهم ثائرة ، ولا نفرت بهم نافرة ، ولا تولتهم الحزية الخافرة ، وإنما الذي هالهم وافزعهم والذي اسهدهم وابكتهم انها تزوجت من غير صداق ، فردوها اليه لانه قبيح بمن كان في مكانتها من النبوة ومرتبتها من الرسالة ان تتزوج بلا صداق . . . . . سألته الصداق فدعا مؤذنها شبث ابن ربعي الرياحي فأمره ان يؤذن في الناس . . . « إنهُ حط عن الناس صلاتين مما أتى به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . . . . ! »

ثم لعلك تذكر الى جانب هذا ، احتياك اصول هؤلاء . ولكنك لا تزال تذكر معي في حسرة وأسىً ما نجم عن امثال هذه العبقرية الممرحة المرجاء ، والبطولة الزائفة الكذاء ، وهذه الاطولة الخاطئة العشواء . . . . من بدع بالغات ، واحاديث هي في نظرك ولظرنا من الكاذبات . . . . ولعلك ان كنت لا تزال تذكر قولنا لك في تيارات المبالغات والمناقصات ، ان نذكر هنا امثال تلك الاحاديث الشرهة المترعة بها كتب الادب والسير امثال ما لصقوه به من الاقوال عن الفواكه وما الى الفواكه من الحلوى وغيرها وان تقارنها بما كان يكرهه صحابة هذا العصر من الاتجاه الى الاحاديث ورواية الاحاديث إلا في أمر حازب وموقف حاسم وعظة بالغة ثم تقارنها بما كان عليه القوم من تقشف في كل شيء من ملبس وما كل ومشرب . . . ولكن النبوة التي من «الماس الكاذب» لها بريقها وسرابها ، وحتلها وسخفها ، ولكن المسلم الذي من «الماس الكاذب» ليس له من اسلامه إلا الاسم واللقب ، والاصل والحسب ، أما العمل والايمان ، وإما الاخلاص والعرفان . . . . فهذه هو منها براء ، وهذه هو بعيد عنها بعد الارض عن السماء

ولكنك مع هذا كله مازلت تريدني وانا في مقام الردة ، وتجديد الاسلام بعد حروب الردة ، وانكشاح الايمان الصحيح للنبوة الكاذبة ، تريدني ان اثبت لك بعد ما قرأت من قرآن عصر الردة كلمة الجاحظ التاريخية الخالدة في هذا الباب . . . .

قول الجاحظ

قال الجاحظ : « بعث الله محمداً صلعم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغةً ، وأشدَّ ما كانت عدّة ، فدعاها أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الاقرار الهوى والحمية ، دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف ، فنصبلهم الحرب ، ونصبوا له ، وقتل من عليهم واعلامهم وبني اعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساء الى ان يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحدياً لهم وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفيًّا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة ، قالوا له أنت تعرف من اخبار الامم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا ، قال فهاتوها مُفْتَرَيات ، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيد ويحاجه عليه ويكابر فيه ويزعم أنه عارضٌ وقابلٌ وناقض ، فدلَّ ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم

واستجابة لفهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء اصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق اتباعه : من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ؛ وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش ، والعرب في الرأي والعقل بطبقات ، وهم القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، وهم الاسجاع ، والمزدوج ، والملفظ المنثور ، ثم تحدّى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم . فمحالٌ اكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر ، والخطإ المكشوف البيّن ، مع التقريع بالنقص ، والتوقيف على العجز ، وهم أشدُّ الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، وقد احتاجوا اليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ؟ وكما أنهُ محالٌ ان يطيقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الامر الجليل المنفعة ، فكذلك محالٌ ان يتركوه وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل اليه ، وهم يبذلون اكثر منه . . . اه . »

على رسلك يا صاح فقد حدثتنا عن الردة وأنبياء عصر الردة ، وحدثتنا عن علاقة ابي بكر في الردة ، وكان من المنتظر ان تحدثنا قبل ذلك بحديث السقيفة لأن السقيفة كانت مبدأ حياة ابي بكر . ولكنني احييك في غير تعقيب على كلامك او اتمام لحجتك او نقض لأقوالك أن المؤرخين قد جروا مجراك بيد اني احب لك المنطق اكثر من جريك على إرسان العادة وأحكام العادة ، ولعلك لا تزال تذكر من مراجعاتك في كل التاريخ أن شيئاً كثيراً من نبوة الأدعياء قد افرخت جرثومتها والنبي صلعم لا يزال على قيد الحياة ، وان ارتداد العرب الذي تم انفجاره بعد وفاته مباشرة لا بد وان يكون لقي نفوساً معدة له ، وتربة مواتية لحسكه وقتاده . وأنت تدرس الفكرة في تطورها وأنت تحفل بهذا النوع من الدراسة لاسيما وقد لاحظت ان ابا بكر اصرَّ على امرة أسامة بن زيد في حروبه ضد المشركين وان أسامة بن زيد ما نصبه في القيادة الا رسول الله ، وقد لاحظت ان نبوة الأسود العنسي كانت في عهد رسول الله . وإذنْ فقد رأيت ان المنطق لا العادة يقضي بهذا النظام الذي اخذناك به في غير صلف ولا إدعاء وقد نكون على ضلال في تمشينا مع فكرة وجدت فولدت فنمت ثم دوت اكثر من تمشينا مع المواقع والأيام والساعات واللحظات . وقد يكون سوانا على حق والعصمة والكمال لله وحده